الرسائل الميسرة

27/100

بدأ الإسلام غريباً

وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ

من رسائل شيخ الإسلام
أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية
المتوفى سنة 728هـ - رحمه الله

اعتنى بإخراجها وتخريجها
أبو عبدالعزيز
إبراهيم بن سلطان العريفان

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إجازة المطبوعة

السلام عليكم ورحمة االله وبركاته

تم تسجيل هذه المادة لصالح المؤلف/المعد أدناه بعد التعهد بالالتزام بجميع الشروط و الاحكام الخاصة بمحتوى المادة

اسم المادة	بدأ الإسلام غريباً لابن تيمية رحمه االله
نوع المادة	كتاب إلكتروني
المحقق	إبراهيم بن سلطان العريفان
المترجمون	
المعدون	
المؤلفون	• إبراهيم سلطان العريفان
رقم الطبعة	1
اسم الناشر باللغة العربية	إبراهيم سلطان العريفان
اسم الناشر باللغة الإنجليزية	IBRAHEEM SULTAN ALURIFAN
رقم التسجيل	202503103622384
تاريخ التسجيل	2025-03-10

المملكة العربية السعودية | صندوق بريد P.O.Box 75222
Kingdom of Saudi Arabia | رمز بريدي Riyadh 11578
هاتف Tel: + 966 11 8134444
فاكس Fax: + 966 11 8134400

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَقَّ أَبْلَجَ لَا يَخْفَى، وَرَفَعَ رَايَةَ التَّوْحِيدِ خَفَّاقَةً رَغْمَ الْمِحَنِ وَالْبَلَاءِ، وَأَرْسَلَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً وَهِدَايَةً لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، فَأَنَارَ بِهِ الدُّرُوبَ، وَأَخْرَجَ النَّاسَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ. وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيٍّ بَدَأَ دَعْوَتَهُ وَحِيدًا، فَصَارَ أُمَّةً، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَطَّرُوا بِمِدَادِ الصَّبْرِ وَالتَّضْحِيَةِ صَفَحَاتِ الْعِزَّةِ وَالتَّمْكِينِ.

أَمَّا بَعْدُ،

فَهَذِهِ الرِّسَالَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ ضِمْنَ الرَّسَائِلِ الْمِئِيَّةِ[1] مِنْ فَتَاوَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ، تَتَنَاوَلُ شَرْحًا وَتَفْسِيرًا لِحَدِيثِ غُرْبَةِ الْإِسْلَامِ، وَبَيَانَ غُرْبَةِ أَهْلِهِ وَفَضْلَهُمْ.

فَإِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَدَأَ فِي فَجْرِهِ الْأَوَّلِ غَرِيبًا، مُحَاطًا بِجُدْرَانِ الرَّفْضِ وَالِاسْتِنْكَارِ، لَا يُؤْمِنُ بِهِ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ، يُوَاجِهُونَ فِي سَبِيلِهِ الْأَذَى وَالْعَذَابَ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا كَالشُّعْلَةِ الَّتِي لَا تَنْطَفِئُ، تُضِيءُ وَلَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهَا رِيَاحُ التَّحَدِّيَاتِ. وَسُرْعَانَ مَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ الْإِسْلَامِ، وَمَلَأَ نُورُهُ الْآفَاقَ، حَتَّى صَارَ مَا كَانَ غَرِيبًا بِالْأَمْسِ عِزًّا وَتَمْكِينًا.

وَالْيَوْمَ، وَقَدْ عَادَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا بَيْنَ أَهْلِهِ، يَتَنَكَّرُ لَهُ بَعْضُ مَنِ انْتَسَبُوا إِلَيْهِ،

---

(١) اسْتَعَنْتُ بِاللَّهِ فِي الْبَدْءِ لِلْعِنَايَةِ بِرَسَائِلِ وَفَتَاوَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهَدَفِي أَنْ أَصِلَ إِلَى مِائَةِ رِسَالَةٍ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ.

وَيَسْتَهْزِئُ بِهِ مَنْ يَجْهَلُونَ قَدْرَهُ.

فِي رِحْلَةِ، تَتَأَرْجَحُ الْأُمَّةُ بَيْنَ مَدٍّ وَجَزْرٍ، بَيْنَ قُوَّةٍ وَضَعْفٍ، بَيْنَ نُورٍ وَظَلَامٍ. وَفِي لَحَظَاتِ الْغُرْبَةِ، حِينَ يَلْفَحُ الْهَوَاءُ الْبَارِدُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَشْتَدُّ وَطْأَةُ الْفِتَنِ، يَسْطَعُ نُورٌ مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ، لِيُضِيءَ لَنَا دُرُوبَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وَيُبَشِّرَنَا بِالْفَلَاحِ وَالنَّجَاةِ.

هَذَا الْحَدِيثُ لَيْسَ مُجَرَّدَ خَبَرٍ عَنِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، بَلْ هُوَ نِبْرَاسٌ يُضِيءُ لَنَا الطَّرِيقَ فِي زَمَنٍ تَكَالَبَتْ فِيهِ قُوَى الشَّرِّ، وَتَزَيَّنَتْ فِيهِ الْبَاطِلُ بِأَبْهَى حُلَلِهَا. إِنَّهُ دَعْوَةٌ لِلثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَالتَّمَسُّكِ بِالدِّينِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى، فِي زَمَنٍ قَلَّ فِيهِ النَّاصِرُ، وَكَثُرَ فِيهِ الْمُخَالِفُ.

إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ بِشَارَةً عَظِيمَةً، لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِدِينِهِمْ فِي زَمَنِ الْغُرْبَةِ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى مَا يُلَاقُونَهُ مِنْ أَذًى وَتَضْيِيقٍ. إِنَّهُمُ الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُمْ "**أُنَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ**"(٢).

فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ، يَسْعَى شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ إِلَى اسْتِكْشَافِ أَعْمَاقِ هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ، وَالْغَوْصِ فِي مَعَانِيهِ وَدَلَالَاتِهِ، وَاسْتِخْلَاصِ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْهُ، لِنَكُونَ مِنَ الْغُرَبَاءِ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنَّةِ. لِنَكُنْ مِنَ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ، وَيُحْيُونَ مَا أَمَاتُوا مِنْ سُنَّتِهِ، وَيَتَمَسَّكُونَ

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦٦٥٠). وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٨٨).

بِدِينِهِمْ فِي زَمَنِ الْغُرْبَةِ، كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ.

وَقَدِ اجْتَهَدْتُ فِي الْعِنَايَةِ عَلَى إِخْرَاجِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَتَخْرِيجِهَا، وَبَيَانِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِهِ، مُعْتَمِدًا بَعْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِكُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ وَغَيْرِهَا، وَأَنْ يَجْزِيَ كُلَّ مَنْ قَرَأَ وَأَفَادَ وَاسْتَفَادَ، وَكُلَّ مَنْ تَوَاصَلَ مَعِي بِإِبْدَاءِ رَأْيٍ أَوِ اقْتِرَاحٍ أَوْ تَنْبِيهٍ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

إبراهيم بن سلطان العريفان

٠٥٦٥٦٥٤٣٢١

المنطقة الشرقية – محافظة الخبر

يوم الثلاثاء ١٤٤٦/٩/١١هـ

تَمْهِيدٌ إِلَى الرِّسَالَةِ

تَتَنَاوَلُ رِسَالَةُ "بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا" لِابْنِ تَيْمِيَّةَ شَرْحًا وَتَفْسِيرًا لِحَدِيثٍ نَبَوِيٍّ شَرِيفٍ، حَيْثُ يُوَضِّحُ أَنَّ الْإِسْلَامَ فِي بِدَايَتِهِ كَانَ غَرِيبًا بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ انْتَشَرَ وَعَرَفَهُ الْكَثِيرُونَ، وَفِي آخِرِ الزَّمَانِ سَيَعُودُ غَرِيبًا، أَيْ أَنَّ الْمُتَمَسِّكِينَ بِتَعَالِيمِهِ الصَّحِيحَةِ سَيَكُونُونَ قِلَّةً.

وَإِلَيْكَ مُلَخَّصًا لِأَهَمِّ مَا جَاءَ فِي الرِّسَالَةِ:

تَفْسِيرُ الْغُرْبَةِ فِي سِيَاقٍ أَوْسَعَ:

الْغُرْبَةُ الْأُولَى: يُشِيرُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ إِلَى أَنَّ الْغُرْبَةَ الْأُولَى لِلْإِسْلَامِ كَانَتْ فِي مَكَّةَ، حَيْثُ كَانَ الْمُسْلِمُونَ قِلَّةً مُضْطَهَدَةً. ثُمَّ فِي الْمَدِينَةِ، حَيْثُ كَانَ الْإِسْلَامُ فِي بِدَايَتِهِ يُوَاجِهُ تَحَدِّيَاتٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ.

الْغُرْبَةُ الْأَخِيرَةُ: يُوَضِّحُ أَنَّ الْغُرْبَةَ الْأَخِيرَةَ سَتَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، عِنْدَمَا يَقِلُّ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ الصَّحِيحُ، وَيَكْثُرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ. وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ انْقِرَاضَ الْإِسْلَامِ، بَلْ يَعْنِي أَنَّ الْمُتَمَسِّكِينَ بِتَعَالِيمِهِ الصَّحِيحَةِ سَيَكُونُونَ قِلَّةً. وَإِنَّ كَثْرَةَ الْمُنْتَسِبِينَ لِلْإِسْلَامِ لَا تَعْنِي بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، فَالْعِبْرَةُ بِصِحَّةِ الْمُعْتَقَدِ وَسَلَامَةِ الْعَمَلِ.

صِفَاتُ الْغُرَبَاءِ بِتَفْصِيلٍ أَكْبَرَ:

التَّمَسُّكُ بِالسُّنَّةِ: الْغُرَبَاءُ هُمُ الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَتَّبِعُونَهَا فِي أَقْوَالِهِمْ

وَأَفْعَالِهِمْ. وَيَحْرِصُونَ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ، وَيَجْتَنِبُونَ الْمُحَرَّمَاتِ وَالشُّبُهَاتِ.

الْإِصْلَاحُ: يَسْعَوْنَ إِلَى إِصْلَاحِ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. يُصْلِحُونَ أَنْفُسَهُمْ أَوَّلًا، ثُمَّ يَسْعَوْنَ إِلَى إِصْلَاحِ غَيْرِهِمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.

الصَّبْرُ وَالثَّبَاتُ: يَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى وَالِابْتِلَاءَاتِ الَّتِي يَتَعَرَّضُونَ لَهَا فِي سَبِيلِ الْحَقِّ. يَثْبُتُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يَتَزَعْزَعُونَ أَمَامَ الْفِتَنِ وَالشُّبُهَاتِ.

الْعِلْمُ وَالْبَصِيرَةُ: هُمْ أَهْلُ عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ. يَسْتَنِدُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَتَّبِعُونَ الْأَهْوَاءَ وَالشَّهَوَاتِ.

أَهَمِّيَّةُ الرِّسَالَةِ فِي عَصْرِنَا:

تُعْتَبَرُ الرِّسَالَةُ تَذْكِيرًا لِلْمُسْلِمِينَ بِأَهَمِّيَّةِ التَّمَسُّكِ بِالدِّينِ فِي أَوْقَاتِ الْفِتَنِ. وتَحُثُّ عَلَى عَدَمِ الِاغْتِرَارِ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ، وَعَلَى الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ وَإِنْ قَلَّ أَهْلُهُ. وتُشَجِّعُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ الصَّحِيحِ، وَعَلَى الْعَمَلِ بِهِ، وَعَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ.

إِنَّ تَفْسِيرَ ابْنِ تَيْمِيَّةَ لِلْغُرْبَةِ يُعْطِي الْمُسْلِمَ أَمَلًا فِي زَمَنِ الْفِتَنِ، فَكَوْنُ الْمُسْلِمِ غَرِيبًا فِي هَذَا الزَّمَانِ لَا يَعْنِي أَنَّهُ عَلَى خَطَأٍ، بَلْ قَدْ يَكُونُ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي غَابَ عَنِ الْكَثِيرِينَ.

وَخِتَامًا:

تُعْتَبَرُ الرِّسَالَةُ مِنَ الرَّسَائِلِ الْهَامَّةِ الَّتِي تُوَضِّحُ مَعَانِيَ الْغُرْبَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَتَحُثُّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالدِّينِ فِي أَوْقَاتِ الْفِتَنِ. وتُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ الْعِبْرَةَ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ الْأَتْبَاعِ، بَلْ بِصِحَّةِ الْمُعْتَقَدِ وَسَلَامَةِ الْعَمَلِ. وإِنَّ فَهْمَ هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاعِدُ الْمُسْلِمَ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَعَدَمِ الِاغْتِرَارِ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]:-

فَصْلٌ:

فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: "بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا؛ وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ"[٤] لَا يَقْتَضِي هَذَا أَنَّهُ إذَا صَارَ غَرِيبًا يَجُوزُ تَرْكُهُ -وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ- بَلْ الْأَمْرُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٥] وَقَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[٦] وَقَالَ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٧] وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٨] وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

---

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/٢٩١ – ٣٠٥).

(٤) رواه مسلم (٢٣٢-١٤٥) عن أبي هريرة ﷺ. وفي رواية (١٤٦) عن ابن عمر ﷺ، بلفظ: "إنَّ الإسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا؛ وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كما بَدَأَ، وَهو يَأْرِزُ بيْنَ المَسْجِدَيْنِ، كما تَأْرِزُ الحَيَّةُ في جُحْرِهَا".

(٥) سورة آل عمران، رقم الآية (٨٥).

(٦) سورة آل عمران، رقم الآية (١٩).

(٧) سورة آل عمران، رقم الآية (١٠٢).

(٨) سورة البقرة، رقم الآية (١٣٠ – ١٣٢).

وَبَيَّنَّا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ كَانَ دِينُهُمْ الْإِسْلَامَ؛ مِنْ نُوحٍ إلَى الْمَسِيحِ. وَلِهَذَا لَمَّا بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا؛ لَمْ يَكُنْ غَيْرُهُ مِنْ الدِّينِ مَقْبُولًا، بَلْ قَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "إنَّ اللَّهَ نَظَرَ إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ - عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ - إلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ" الْحَدِيثَ(٩).

وَلَا يَقْتَضِي هَذَا أَنَّهُ إذَا صَارَ غَرِيبًا؛ أَنَّ الْمُتَمَسِّكَ بِهِ يَكُونُ فِي شَرٍّ، بَلْ هُوَ أَسْعَدُ النَّاسِ، كَمَا قَالَ فِي تَمَامِ الْحَدِيثِ "فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ" وَ"طُوبَى" مِنْ الطِّيبِ(١٠)، قَالَ تَعَالَى ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾(١١) فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ جِنْسِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ لِمَا كَانَ غَرِيبًا. وَهُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ.

أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَهُمْ أَعْلَى النَّاسِ دَرَجَةً بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ. وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

---

(٩) رواه مسلم (٦٣-٢٨٦٥) من حديث طويل.

(١٠) قال الإمام النووي في شرحه (٢/١٧٦): وَطُوبَى فُعْلَى مِنَ الطِّيبِ، قَالَهُ الْفَرَّاءُ. قَالَ: وَإِنَّمَا جَاءَتِ الْوَاوُ لِضَمَّةِ الطَّاءِ. قَالَ: وَفِيهَا لُغَتَانِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: طُوبَاكَ، وَطُوبَى لَكَ. وَأَمَّا مَعْنَى طُوبَى، فَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ فَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ مَعْنَاهُ: فَرَحٌ وَقُرَّةُ عَيْنٍ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نِعْمَ مَا لَهُمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: غِبْطَةٌ لَهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: حُسْنَى لَهُمْ. وَعَنْ قَتَادَةَ أَيْضًا: مَعْنَاهُ أَصَابُوا خَيْرًا. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: خَيْرٌ لَهُمْ وَكَرَامَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَجْلَانَ: دَوَامُ الْخَيْرِ. وَقِيلَ: الْجَنَّةُ. وَقِيلَ: شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُحْتَمَلَةٌ فِي الْحَدِيثِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١١) سورة الرعد، رقم الآية (٢٩).

الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٢] أَيْ أَنَّ اللَّهَ حَسْبُك وَحَسْبُ مُتَّبِعِك. وَقَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[١٣] وَقَالَ تَعَالَى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[١٤] وَقَالَ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[١٥].

فَالْمُسْلِمُ الْمُتَّبِعُ لِلرَّسُولِ: اللَّهُ تَعَالَى حَسْبُهُ وَكَافِيهِ، وَهُوَ وَلِيُّهُ حَيْثُ كَانَ وَمَتَى كَانَ. وَلِهَذَا يُوجَدُ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ؛ لَهُمْ السَّعَادَةُ كُلَّمَا كَانُوا أَتَمَّ تَمَسُّكًا بِالْإِسْلَامِ. فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ شَرٌّ كَانَ بِذُنُوبِهِمْ؛ حَتَّى إنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ إذَا رَأَوْا الْمُسْلِمَ الْقَائِمَ بِالْإِسْلَامِ عَظَّمُوهُ وَأَكْرَمُوهُ وَأَعْفَوْهُ مِنْ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُونَ بِهَا. الْمُنْتَسِبِينَ إلَى ظَاهِرِ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ بِحَقِيقَتِهِ لَمْ يُكْرِمْ.

وَكَذَلِكَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ. فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا شَرّ. وَلِلَّهِ عَلَى عِبَادِهِ نِعَمٌ، لَكِنْ الشَّرُّ الَّذِي يُصِيبُ الْمُسْلِمَ أَقَلُّ، وَالنِّعَمُ الَّتِي تَصِلُ إلَيْهِ أَكْثَرُ. فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَإِنْ ابْتُلُوا بِأَذَى الْكُفَّارِ وَالْخُرُوجِ مِنْ الدِّيَارِ، فَالَّذِي حَصَلَ لِلْكُفَّارِ مِنْ الْهَلَاكِ كَانَ أَعْظَمَ بِكَثِيرٍ. وَالَّذِي كَانَ يَحْصُلُ لِلْكُفَّارِ مِنْ عِزٍّ أَوْ مَالٍ كَانَ يَحْصُلُ

---

(١٢) سورة الأنفال، رقم الآية (٦٤).

(١٣) سورة الأعراف، رقم الآية (١٩٦).

(١٤) سورة الزمر، رقم الآية (٣٦).

(١٥) سورة الطلاق، رقم الآية (٢ – ٣).

لِلْمُسْلِمِينَ أَكْثَرُ مِنْهُ، حَتَّى مِنَ الْأَجَانِبِ.

فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ -مَعَ مَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَسْعَوْنَ فِي أَذَاهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ- كَانَ اللَّهُ يَدْفَعُ عَنْهُ وَيُعِزُّهُ وَيَمْنَعُهُ وَيَنْصُرُهُ مِنْ حَيْثُ كَانَ؛ أَعَزَّ قُرَيْشٍ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ كَانَ يَحْصُلُ لَهُ مَنْ يُؤْذِيه وَيُهِينُهُ مَنْ لَا يُمْكِنُهُ دَفْعُهُ، إِذْ لِكُلِّ كَبِيرٍ كَبِيرٌ يُنَاظِرُهُ ويناويه وَيُعَادِيهِ. وَهَذِهِ حَالُ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ الْإِسْلَامَ، يَخَافُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَرْجُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَأَتْبَاعُهُ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْحَبَشَةِ، أَكْرَمَهُمْ مَلِكُ الْحَبَشَةِ وَأَعَزَّهُمْ غَايَةَ الْإِكْرَامِ وَالْعِزِّ. وَالَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَكَانُوا أَكْرَمَ وَأَعَزَّ. وَالَّذِي كَانَ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ أَذَى الدُّنْيَا؛ كَانُوا يُعَوَّضُونَ عَنْهُ عَاجِلًا مِنَ الْإِيمَانِ وَحَلَاوَتِهِ وَلَذَّتِهِ مَا يَحْتَمِلُونَ بِهِ ذَلِكَ الْأَذَى. وَكَانَ أَعْدَاؤُهُمْ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْأَذَى وَالشَّرِّ أَضْعَافُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ عِوَضٍ لَا آجِلًا وَلَا عَاجِلًا، إِذْ كَانُوا مُعَاقِبِينَ بِذُنُوبِهِمْ. وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ مُمْتَحِنِينَ، لِيَخْلُصَ إِيمَانُهُمْ وَتُكَفَّرَ سَيِّئَاتُهُمْ(١٦).

وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْمَلُ لِلَّهِ، فَإِنْ أُوذِيَ احْتَسَبَ أَذَاهُ عَلَى اللَّهِ، وَإِنْ بَذَلَ

---

(١٦) إِنَّ الْمَصَائِبَ وَالْبَلَاءَ امْتِحَانٌ لِلْعَبْدِ، وَهِيَ عَلَامَةُ حُبٍّ مِنَ اللَّهِ لَهُ. عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**" وَقَالَ: "**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**" رواه الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجه (٤٠٣١). وعند الإمام أحمد (٢٣٦٤١) بسنده عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: "**إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ، فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ**".

سَعْيًا أَوْ مَالًا بَذَلَهُ لِلَّهِ، فَاحْتَسَبَ أَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ.

وَالْإِيمَانُ لَهُ حَلَاوَةٌ فِي الْقَلْبِ؛ وَلَذَّةٌ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ أَلْبَتَّةَ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا. وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ. وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ" أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١٧). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: "ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا"(١٨).

وَكَمَا أَنَّ اللَّهَ نَهَى نَبِيَّهُ أَنْ يُصِيبَهُ حَزَنٌ أَوْ ضِيقٌ مِمَّنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، فَكَذَلِكَ فِي آخِرِهِ. فَالْمُؤْمِنُ مَنْهِيٌّ أَنْ يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَكُونَ فِي ضَيْقٍ مِنْ مَكْرِهِمْ(١٩).

---

(١٧) رواه البخاري (١٦). ومسلم (٦٧-٤٣) عن أنس ﷺ.

(١٨) رواه مسلم (٥٦-٣٤) عن العباس بن عبدالمطلب ﷺ.

(١٩) في سورة النحل، آية (١٢٧) ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وفي سورة النمل، آية (٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

الْحُزْنُ لم يَأْمُرِ اللهُ بِهِ وَلَا رَسُولُهُ، بَلْ قَدْ نُهِيَ عَنْهُ فِي مَوَاضِعَ -وَإِنْ تَعَلَّقَ أَمْرُ الدِّينِ بِهِ- وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَجْلِبُ مَنْفَعَةً، وَلَا يَدْفَعُ مَضَرَّةً، وَلَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَا يَأْمُرُ اللهُ بِهِ. وَلَمْ يَأْتِ الْحُزْنُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا مَنْهِيًّا عَنْهُ، أَوْ مَنْفِيًّا؛ فَالْمَنْهِيُّ عَنْهُ كَمَا فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ، وَالْمَنْفِيُّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة (٣٨) وَسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ الْحُزْنَ مُوقِفٌ غَيْرُ مُسَيِّرٍ، وَلَا مَصْلَحَةَ فِيهِ لِلْقَلْبِ، وَأَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الشَّيْطَانِ أَنْ يَحْزُنَ الْعَبْدَ لِيَقْطَعَهُ عَنْ سَيْرِهِ، وَيُوقِفَهُ عَنْ سُلُوكِهِ.

انظر: التحفة العراقية لابن تيمية (ص: ٤٢) ومدارج السالكين لابن القيم (١/٥٠٠ – ٥٠١).

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا رَأَى الْمُنْكَرَ أَوْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِسْلَامِ، جَزِعَ وَكَلَّ وَنَاحَ؛ كَمَا يَنُوحُ أَهْلُ الْمَصَائِبِ، وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْ هَذَا؛ بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِالصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَالثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ(٢٠)، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى. وَأَنَّ مَا يُصِيبُهُ فَهُوَ بِذُنُوبِهِ، فَلْيَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلْيَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِهِ، وَلْيُسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّهِ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(٢١).

وَقَوْلُهُ ﷺ: "ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ" يَحْتَمِلُ شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ فِي أَمْكِنَةٍ وَأَزْمِنَةٍ يَعُودُ غَرِيبًا بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَظْهَرُ؛ كَمَا كَانَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ غَرِيبًا ثُمَّ ظَهَرَ. وَلِهَذَا قَالَ "سَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ" وَهُوَ لَمَّا بَدَأَ كَانَ غَرِيبًا لَا يُعْرَفُ؛ ثُمَّ ظَهَرَ وَعُرِفَ. فَكَذَلِكَ يَعُودُ حَتَّى لَا يُعْرَفَ؛ ثُمَّ يَظْهَرُ وَيُعْرَفُ. فَيَقِلُّ مَنْ يَعْرِفُهُ فِي أَثْنَاءِ الْأَمْرِ، كَمَا كَانَ مَنْ يَعْرِفُهُ أَوَّلًا.

وَيَحْتَمِلُ: أَنَّهُ فِي آخِرِ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى مُسْلِمًا إِلَّا قَلِيلٌ. وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ

---

(٢٠) قال ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٤٦٤/٨): قَرْنُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بقَولِه تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وَإِخْبَارُهُمْ بِأَنَّ اللهَ مَعَهُمْ؛ يُوجِبُ زَوَالَ الضِّيقِ مِنْ مَكْرِ عَدُوِّهِمْ.

(٢١) في سورة الحجر، آية (٩٧-٩٨) قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

قال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٣٢٣/٢): فِي تَرْتِيبِهِ جَلَّ وَعَلَا الْأَمْرَ بِالتَّسْبِيحِ وَالسُّجُودِ عَلَى ضِيقِ صَدْرِهِ ﷺ بِسَبَبِ مَا يَقُولُونَ لَهُ مِنَ السُّوءِ؛ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ وَالتَّسْبِيحَ سَبَبٌ لِزَوَالِ ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ؛ وَلِذَا كَانَ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ بَادَرَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ البقرة (٤٥) فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ إِذَا أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ أَنْ يَفْزَعَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا.

الدَّجَّالِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ عِنْدَ قُرْبِ السَّاعَةِ. وَحِينَئِذٍ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا تَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ؛ ثُمَّ تَقُومُ الْقِيَامَةُ(٢٢). وَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَقَدْ، قَالَ ﷺ: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ؛ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"(٢٣) وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَمِثْلُهُ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ(٢٤).

فَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: أَنَّهُ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مُمْتَنِعَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَى الْحَقِّ أَعِزَّاءُ، لَا يَضُرُّهُمْ الْمُخَالِفُ؛ وَلَا خِلَافُ الْخَاذِلِ. فَأَمَّا بَقَاءُ الْإِسْلَامِ غَرِيبًا ذَلِيلًا فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا قَبْلَ السَّاعَةِ؛ فَلَا يَكُونُ هَذَا.

وَقَوْلُهُ ﷺ: "ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ" أَعْظَمُ مَا تَكُونُ غُرْبَتُهُ إذَا ارْتَدَّ الدَّاخِلُونَ فِيهِ عَنْهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ

---

(٢٢) روى مسلم في صحيحه (١٨٥-١١٧) بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول الله ﷺ "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ رِيحًا مِنْ الْيَمَنِ، أَلْيَنَ مِنَ الْحَرِيرِ، فَلَا تَدَعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ -قَالَ أَبُو عَلْقَمَةَ: "مِثْقَالُ حَبَّةٍ" وقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ "مِثْقَالُ ذَرَّةٍ- مِنَ إِيمَانٍ إلا قبضته".

(٢٣) رواه البخاري (٧٣١١) ومسلم (١٧٠-١٩٢٠) جاء الحديث عن معاوية وثوبان والمغيرة ﷺ.

(٢٤) وقدْ رَأَى جَمَاعَةٌ: أَنَّ فِي الْحَدِيثِ بِشَارَةً بِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ غُرْبَتِهِ الثَّانِيَةِ، آخِذِينَ ذَلِكَ مِنَ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: "وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ" فَكَمَا كَانَ بَعْدَ الْغُرْبَةِ الْأُولَى عِزٌّ لِلْمُسْلِمِينَ وَانْتِشَارٌ لِلْإِسْلَامِ، فَكَذَا سَيَكُونُ لَهُ بَعْدَ الْغُرْبَةِ الثَّانِيَةِ نَصْرٌ وَانْتِشَارٌ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا ثَبَتَ فِي أَحَادِيثِ الْمَهْدِيِّ وَنُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِرَ الزَّمَانِ؛ مِنْ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ، وَعِزَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَقُوَّتِهِمْ، وَدَحْضِ الْكُفْرِ وَالْكَفَرَةِ.

انظر: كتاب فتاوى اللجنة الدائمة -المجموعة الأولى- (٢/٢٥١).

اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[٢٥] فَهَؤُلَاءِ يُقِيمُونَهُ إِذَا ارْتَدَّ عَنْهُ أُولَئِكَ.

وَكَذَلِكَ بَدَأَ غَرِيبًا وَلَمْ يَزَلْ يَقْوَى حَتَّى انْتَشَرَ. فَهَكَذَا يَتَغَرَّبُ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَمْكِنَةِ وَالْأَزْمِنَةِ، ثُمَّ يَظْهَرُ حَتَّى يُقِيمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا وُلِّيَ؛ قَدْ تَغَرَّبَ كَثِيرٌ مِنْ الْإِسْلَامِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ، حَتَّى كَانَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ مَا كَانَ غَرِيبًا[٢٦]، وَفِي السُّنَنِ: "**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فِي رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**"[٢٧] وَالتَّجْدِيدُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الدُّرُوسِ، وَذَاكَ هُوَ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ[٢٨].

وَهَذَا الْحَدِيثُ يُفِيدُ الْمُسْلِمَ أَنَّهُ لَا يَغْتَمُّ بِقِلَّةِ مَنْ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ، وَلَا يَضِيقُ صَدْرُهُ بِذَلِكَ، وَلَا يَكُونُ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، كَمَا كَانَ الْأَمْرُ

---

(٢٥) سورة المائدة، رقم الآية (٥٤).

(٢٦) قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ -مِنْ طُرُقٍ- عَنْهُ: **إِنَّ اللهَ يُقَيِّضُ لِلنَّاسِ فِي رَأْسِ كُلِّ مائَةٍ مَنْ يُعلِّمُهُمُ السُّنَنَ، وَيَنْفِي عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ الكَذِبَ**. قَالَ: **فَنَظَرْنَا، فَإِذَا فِي رَأْسِ المائَةِ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيْزِ، وَفِي رَأْسِ المائَتَيْنِ الشَّافِعِيُّ**. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/٤٦).

(٢٧) رواه أبو داود (٤٢٩١) عن أبي هريرة ﷺ. صححه الألباني في السنن.

(٢٨) كُلَّمَا انْحَرَفَ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ عَنْ جَادَّةِ الدِّينِ الَّذِي أَكْمَلَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، وَأَتَمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ، وَرَضِيَهُ لَهُمْ دِينًا، بَعَثَ إِلَيْهِمْ عُلَمَاءَ أَوْ عَالِمًا بَصِيرًا بِالْإِسْلَامِ، وَدَاعِيَةً رَشِيدًا، يُبَصِّرُ النَّاسَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الثَّابِتَةِ، وَيُجَنِّبُهُمُ الْبِدَعَ، وَيُحَذِّرُهُمْ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، وَيَرُدُّهُمْ عَنِ انْحِرَافِهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ: تَجْدِيدًا بِالنِّسْبَةِ لِلْأُمَّةِ، لَا بِالنِّسْبَةِ لِلدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ وَأَكْمَلَهُ. فَإِنَّ التَّغَيُّرَ وَالضَّعْفَ وَالِانْحِرَافَ إِنَّمَا يَطْرَأُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ عَلَى الْأُمَّةِ، أَمَّا الْإِسْلَامُ نَفْسُهُ فَمَحْفُوظٌ بِحِفْظِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ الْمُبَيِّنَةِ لَهُ.

انظر: كتاب فتاوى اللجنة الدائمة -المجموعة الأولى- (٢/٢٤٧ - ٢٤٨).

حِينَ بَدَأَ، قَالَ تَعَالَى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾[٢٩] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ الْإِسْلَامِ.

وَكَذَلِكَ إذَا تَغَرَّبَ يَحْتَاجُ صَاحِبُهُ مِنْ الْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ إلَى نَظِيرِ مَا احْتَاجَ إلَيْهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَقَدْ قَالَ لَهُ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[٣٠] وَقَالَ تَعَالَى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٣١].

وَقَدْ تَكُونُ الْغُرْبَةُ فِي بَعْضِ شَرَائِعِهِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَمْكِنَةِ. فَفِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَمْكِنَةِ يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ شَرَائِعِهِ مَا يَصِيرُ بِهِ غَرِيبًا بَيْنَهُمْ؛ لَا يَعْرِفُهُ مِنْهُمْ إلَّا الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ. وَمَعَ هَذَا فَطُوبَى لِمَنْ تَمَسَّكَ بِتِلْكَ الشَّرِيعَةِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. فَإِنَّ إظْهَارَهُ وَالْأَمْرَ بِهِ وَالْإِنْكَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ هُوَ

---

(٢٩) سورة يونس، رقم الآية (٩٤).

(٣٠) سورة الأنعام، رقم الآية (١١٤ – ١١٦).

(٣١) سورة الفرقان، رقم الآية (٤٤).

بِحَسَبِ الْقُوَّةِ وَالْأَعْوَانِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا؛ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ"(٣٢).

وَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ حَصَلَ لَهُ سُوءٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِخِلَافِ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَأَتْبَاعَهُ، فَهَذَا مِنْ ذُنُوبِهِ وَنَقْصِ إِسْلَامِهِ، كَالْهَزِيمَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَإِلَّا فَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾(٣٣) وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٣٤).

وَفِيمَا قَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ وَنَصْرِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ؛ وَهَلَاكِ أَعْدَائِهِمْ، عِبْرَةٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ هُوَ خِطَابٌ لِذَلِكَ الْقَرْنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾(٣٥) وَلِهَذَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ الَّذِينَ

---

(٣٢) رواه مسلم (٧٨-٤٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣٣) سورة غافر، رقم الآية (٥١).

(٣٤) سورة الصافات، رقم الآية (١٧١ – ١٧٣).

(٣٥) سورة النور، رقم الآية (٥٥).

دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ؛ لَمَّا ارْتَدَّ مَنْ ارْتَدَّ مِنْ الْعَرَبِ(٣٦). وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ(٣٧).

قِيلَ: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خِطَابٌ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، كَسَائِرِ أَنْوَاعِ هَذَا الْخِطَابِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾(٣٨) وَأَمْثَالِهَا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾(٣٩) وَكِلَاهُمَا وَقَعَ وَيَقَعُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَإِنَّهُ مَا

---

(٣٦) روى الحاكم في مستدركه (٣٢٢٠) بسنده عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عِيَاضًا الْأَشْعَرِيَّ، يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هُمْ قَوْمُكَ يَا أَبَا مُوسَى" وَأَوْمَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. ثم قال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.
وفي رواية البيهقي في كتاب دلائل النبوة (٥/٣٥١) "هُمْ قَوْمُكَ يَا أَبَا مُوسَى؛ أَهْلُ الْيَمَنِ".

(٣٧) دَلَّتِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ عَلَى أَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، حِينَ لَا يُقَالُ فِي الْأَرْضِ: اللهُ. وَذَلِكَ فِي آخِرِ عُمُرِ الدُّنْيَا، بَعْدَ ظُهُورِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَقَتْلِهِ عَلَى يَدِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَظُهُورِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَتَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ فِي الْأَرْضِ. وَجَاءَ تَفْصِيلُ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١١٦-٢٩٤٠) بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "**يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ -كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ- فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ. حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ. قَالَ: فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ؛ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ**".

(٣٨) سورة المائدة، رقم الآية (٦).

(٣٩) سورة النور، رقم الآية (٥٥).

ارْتَدَّ عَنْ الْإِسْلَامِ طَائِفَةٌ إلَّا أَتَى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ يُجَاهِدُونَ عَنْهُ؛ وَهُمْ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

يَبِينُ ذَلِكَ: أَنَّهُ ذَكَرَ هَذَا فِي سِيَاقِ النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ، فَقَالَ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[٤٠] إلَى قَوْلِهِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فَالْمُخَاطَبُونَ بِالنَّهْيِ عَنْ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، هَمّ الْمُخَاطَبُونَ بِآيَةِ الرِّدَّةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ قُرُونِ الْأُمَّةِ. وَهُوَ لَمَّا نَهَى عَنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ؛ وَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ تَوَلَّاهُمْ مِنْ الْمُخَاطَبِينَ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، بَيَّنَ أَنَّ مَنْ تَوَلَّاهُمْ وَارْتَدَّ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ لَا يَضُرُّ الْإِسْلَامَ شَيْئًا، بَلْ سَيَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، فَيَتَوَلَّوْنَ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ الْكُفَّارِ، وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[٤١] فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ؛ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْهُ بَعْدَ الدُّخُولِ

---

(٤٠) سورة المائدة، رقم الآية (٥١ – ٥٢).

(٤١) سورة الأنعام، رقم الآية (٩٠).

فِيهِ؛ لَا يَضُرُّونَ الْإِسْلَامَ شَيْئًا. بَلْ يُقِيمُ اللَّهُ مَنْ يُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ؛ وَيَنْصُرُ دِينَهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

وَأَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ مِمَّنْ جَاءَ اللَّهُ بِهِمْ لَمَّا ارْتَدَّ مَنْ ارْتَدَّ إِذْ ذَاكَ. وَلَيْسَتْ الْآيَةُ مُخْتَصَّةً بِهِمْ؛ وَلَا فِي الْحَدِيثِ مَا يُوجِبُ تَخْصِيصَهُمْ(٤٢). بَلْ قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يَأْتِي بِغَيْرِ أَهْلِ الْيَمَنِ كَأَبْنَاءِ فَارِسَ؛ لَا يَخْتَصُّ الْوَعْدُ بِهِمْ، بَلْ قَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤٣) وَهَذَا أَيْضًا خِطَابٌ لِكُلِّ قَرْنٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّهُ مَنْ نَكَلَ عَنْ الْجِهَادِ الْمَأْمُورِ بِهِ؛ عَذَّبَهُ وَاسْتَبْدَلَ بِهِ

---

(٤٢) نَصَّ الأُصُولِيُّونَ والفُقَهَاءُ عَلَى قَاعِدَةٍ هَامَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ "**الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ**" وهذه القَاعِدَةُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا عِنْدَ جَمَاهِيرِ أَهْلِ العِلْمِ ولم يُخَالِفْ فِيهَا إِلَّا القَلِيلُ.

قال الإمام الرازي في المحصول (٣/١٢٥): فَالْحَقُّ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، خِلَافًا للمُزَنِيّ وأَبِي ثَوْرٍ؛ فإِنَّهُمَا زَعَمَا أَنَّ خُصُوصَ السَّبَبِ يَكُونُ مُخَصِّصًا لِعُمُومِ اللَّفْظِ.

لَكِنْ هُنَاكَ أَمْرَانِ يَنْبَغِي مُلَاحَظَتُهُمَا عِنْدَ تَطْبِيقِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ يُفَرَّقُ بَيْنَ وُرُودِ الْعَامِّ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُخَصِّصُهُ عَلَى الصَّحِيحِ، وَبَيْنَ دَلَالَةِ السِّيَاقِ وَالْقَرَائِنِ عَلَى تَخْصِيصِ العَامِّ فَإِنَّ ذَلِكَ يُخَصِّصُهُ.

الثَّانِي: أَنَّ اعْتِبَارَ عُمُومِ اللَّفْظِ دُونَ خُصُوصِ السَّبَبِ، فِيمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُعَارِضٌ، أَمَّا إِذَا وُجِدَ مُعَارِضٌ، فَيَنْبَغِي حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى خُصُوصِ السَّبَبِ.

(٤٣) سورة التوبة، رقم الآية (٣٨ – ٣٩).

مَنْ يَقُومُ بِالْجِهَادِ. وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(٤٤) فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مَنْ يَتَوَلَّ عَنْ الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ؛ أَوْ عَنْ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ اُسْتُبْدِلَ بِهِ. فَهَذِهِ حَالُ الْجَبَانِ الْبَخِيلِ؛ يَسْتَبْدِلُ اللَّهُ بِهِ مَنْ يَنْصُرُ الْإِسْلَامَ وَيُنْفِقُ فِيهِ. فَكَيْفَ تَكُونُ حَالُ أَصْلِ الْإِسْلَامِ مَنْ ارْتَدَّ عَنْهُ!! أَتَى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ. وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْقِتَالِ وَالْمَالِ؛ مَعَ الطَّوَائِفِ الْأَرْبَعَةِ(٤٥)؛ مُؤْمِنُونَ

---

(٤٤) سورة محمد، رقم الآية (٣٨).

(٤٥) يُشِيرُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي كَلَامِهِ إِلَى أَرْبَعِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّصِفُونَ بِصِفَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، وَهَذِهِ الطَّوَائِفُ هِيَ:

أَهْلُ الْعِلْمِ: وَهُمُ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يُكَرِّسُونَ حَيَاتَهُمْ لِطَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ وَنَشْرِهِ، وَيَتَّصِفُونَ بِالتَّوَاضُعِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالشِّدَّةِ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِالْعِلْمِ وَالْحُجَّةِ.

أَهْلُ الْعِبَادَةِ: وَهُمُ الْعِبَادُ الَّذِينَ يُكْثِرُونَ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ، وَيَتَّصِفُونَ بِالْخُشُوعِ وَالتَّذَلُّلِ لِلَّهِ، وَالرَّحْمَةِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَالْقُوَّةِ فِي الْحَقِّ.

أَهْلُ الْقِتَالِ: وَهُمُ الْمُجَاهِدُونَ الَّذِينَ يُدَافِعُونَ عَنِ الدِّينِ وَالْأُمَّةِ، وَيَتَّصِفُونَ بِالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَدَمِ الْخَوْفِ مِنْ لَوْمَةِ لَائِمٍ.

مُجَاهِدُونَ مَنْصُورُونَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا مِنْهُمْ مَنْ يَرْتَدُّ أَوْ مَنْ يَنْكُلُ عَنْ الْجِهَادِ وَالْإِنْفَاقِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[٤٦] فَهَذَا الْوَعْدُ مُنَاسِبٌ لِكُلِّ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذَا الْوَصْفِ. فَلَمَّا اتَّصَفَ بِهِ الْأَوَّلُونَ اسْتَخْلَفَهُمْ اللَّهُ كَمَا وَعَدَ. وَقَدْ اتَّصَفَ بَعْدَهُمْ بِهِ قَوْمٌ بِحَسَبِ إِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمْ الصَّالِحِ. فَمَنْ كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا وَعَمِلَ صَالِحًا كَانَ اسْتِخْلَافُهُ الْمَذْكُورُ أَتَمَّ. فَإِنْ كَانَ فِيهِ نَقْصٌ وَخَلَلٌ كَانَ فِي تَمْكِينِهِ خَلَلٌ وَنَقْصٌ. وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا جَزَاءُ هَذَا الْعَمَلِ، فَمَنْ قَامَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ اسْتَحَقَّ ذَلِكَ الْجَزَاءَ.

لَكِنْ مَا بَقِيَ قَرْنٌ مِثْلَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ؛ فَلَا جَرَمَ مَا بَقِيَ قَرْنٌ يَتَمَكَّنُ تَمَكُّنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ. قَالَ ﷺ: "خَيْرُ الْقُرُونِ: الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"[٤٧] وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ هَذَا لِبَعْضِ أَهْلِ الْقَرْنِ، كَمَا يَحْصُلُ

أَهْلُ الْمَالِ: وَهُمُ الْأَغْنِيَاءُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَدْعَمُونَ الْجِهَادَ وَالْمَشَارِيعَ الْخَيْرِيَّةَ، وَيَتَّصِفُونَ بِالْكَرَمِ وَالْجُودِ.

وَيُؤَكِّدُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ أَنَّ هَذِهِ الطَّوَائِفَ الْأَرْبَعَ مَوْجُودَةٌ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَأَنَّهَا تُشَكِّلُ قُوَّةً مُؤْمِنَةً مُجَاهِدَةً مَنْصُورَةً، وَلَكِنَّهُ يُشِيرُ أَيْضًا إِلَى أَنَّ بَعْضَ أَفْرَادِ هَذِهِ الطَّوَائِفِ قَدْ يَرْتَدُّ أَوْ يَنْكُلُ عَنِ الْجِهَادِ وَالْإِنْفَاقِ.

(٤٦) سورة النور، رقم الآية (٥٥).

(٤٧) رواه البخاري (٣٦٥٠) ومسلم (٢١٠-٢٥٣٣) عن عبدالله وأبي هريرة وعمران بن حصين.

هَذَا لِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ الْجِهَاتِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ رِيحًا؛ تَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ**" فَذَاكَ لَيْسَ فِيهِ رِدَّةٌ؛ بَلْ فِيهِ مَوْتُ الْمُؤْمِنِينَ. وَهُوَ لَمْ يَقُلْ: إِذَا مَاتَ كُلُّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَسْتَبْدِلَ اللَّهُ مَوْضِعَهُ آخَرَ، وَإِنَّمَا وَعَدَ بِهَذَا إِذَا ارْتَدَّ بَعْضُهُمْ عَنْ دِينِهِ. وَهُوَ مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْأُمَّةَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَلَا تَرْتَدُّ جَمِيعُهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُبْقِيَ اللَّهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ هُوَ ظَاهِرٌ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. فَإِذَا مَاتَ كُلُّ مُؤْمِنٍ؛ فَقَدْ جَاءَتْ السَّاعَةُ.

وَهَذَا كَمَا فِي حَدِيثِ الْعِلْمِ "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ. فَإِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**"[٤٨] وَالْحَدِيثُ مَشْهُورٌ فِي الصِّحَاحِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ.

فَإِنْ قِيلَ: فَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِ، أَنَّهُ قَالَ: **يَسْرِي عَلَى الْقُرْآنِ، فَلَا يَبْقَى فِي الْمَصَاحِفِ مِنْهُ آيَةٌ؛ وَلَا فِي الصُّدُورِ مِنْهُ آيَةٌ**[٤٩]. وَهَذَا يُنَاقِضُ هَذَا!.

قِيلَ: لَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ قَبْضَ الْعِلْمِ لَيْسَ قَبْضَ الْقُرْآنِ، بِدَلِيلِ الْحَدِيثِ

---

(٤٨) رواه البخاري (١٠٠) ومسلم (١٣-٢٦٧٣) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

(٤٩) انظر: مسند الدارمي (٣٣٨٤ و ٣٣٨٦) المعجم الكبير للطبراني (٨٦٩٨) ومستدرك الحاكم (٨٥٣٨). صحَّح إسنادَه ابن حجر في الفتح (١٩/١٣). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٢/٧): رجاله رجال الصَّحيح غير شداد بن معقل، وهو ثقة.

الْآخَرِ: "هَذَا أَوَانٌ يُقْبَضُ الْعِلْمُ" فَقَالَ بَعْضُ الْأَنْصَارِ: وَكَيْفَ يُقْبَضُ، وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، وَأَقْرَأْنَاهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا؟ فَقَالَ: "ثَكِلَتْك أُمُّك، إنْ كُنْت لَأَحْسِبُك لَمِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ. أَوْ لَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؟ فَمَاذَا يُغْنِي عَنْهُمْ؟"(٥٠) فَتَبَيَّنَ أَنَّ مُجَرَّدَ بَقَاءِ حِفْظِ الْكِتَابِ لَا يُوجِبُ هَذَا الْعِلْمَ، لَا سِيَّمَا أَنَّ الْقُرْآنَ يَقْرَؤُهُ الْمُنَافِقُ وَالْمُؤْمِنُ، وَيَقْرَؤُهُ الْأُمِّيُّ الَّذِي لَا يَعْلَمُ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ، وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: **الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ. فَعِلْمُ الْقَلْبِ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمُ اللِّسَانِ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ**(٥١). فَإِذَا قَبَضَ اللَّهُ الْعُلَمَاءَ بَقِيَ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِلَا عِلْمٍ، فَيَسْرِي عَلَيْهِ مِنْ الْمَصَاحِفِ وَالصُّدُورِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَفِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ عَنْ قَبْضِ الْأَمَانَةِ، وَأَنَّ "الرَّجُلَ يَنَامُ النَّوْمَةَ؛ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ(٥٢). ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ؛ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا

---

(٥٠) رواه الإمام أحمد (١٧٤٧٣) والترمذي (٢٦٥٣) وابن ماجه (٤٠٤٨). قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وقال الحاكم (٣٣٨): أَنَّ الْحَدِيثَ قَدْ رُوِيَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ. ووافقه الذهبي.

(٥١) أورده ابن المبارك في الزهد والرقائق (١١٦١) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٣٦١) مرفوعًا. قال العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٩٤٥): منكر مرفوع.

(٥٢) قال النووي في شرحه (١٦٨/٢): "الْوَكْتِ" فَهُوَ بِفَتْحِ الْوَاوِ وَإِسْكَانِ الْكَافِ وَبِالتَّاءِ الْمُثَنَّاةِ مِنْ فَوْقُ، وَهُوَ الْأَثَرُ الْيَسِيرُ، كَذَا قَالَهُ الْهَرَوِيُّ. وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ سَوَادٌ يَسِيرٌ. وَقِيلَ: هُوَ لَوْنٌ يَحْدُثُ مُخَالِفٌ لِلَّوْنِ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ.

مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ[٥٣]، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا[٥٤] وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ"[٥٥].

قِيلَ: وَقَبْضُ الْأَمَانَةِ وَالْإِيمَانِ؛ لَيْسَ هُوَ قَبْضِ الْعِلْمِ. فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُؤْتَى إِيمَانًا مَعَ نَقْصِ عِلْمِهِ. فَمِثْلُ هَذَا الْإِيمَانِ قَدْ يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ، كَإِيمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا رَأَوْا الْعِجْلَ. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ مَعَ الْإِيمَانِ فَهَذَا لَا يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ. وَمِثْلُ هَذَا لَا يَرْتَدُّ عَنْ الْإِسْلَامِ قَطُّ، بِخِلَافِ مُجَرَّدِ الْقُرْآنِ أَوْ مُجَرَّدِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ هَذَا قَدْ يَرْتَفِعُ. فَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

لَكِنْ أَكْثَرُ مَا نَجِدُ الرِّدَّةَ فِيمَنْ عِنْدَهُ قُرْآنٌ بِلَا عِلْمٍ وَإِيمَانٍ، أَوْ مَنْ عِنْدَهُ إِيمَانٌ بِلَا عِلْمٍ وَقُرْآنٍ. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ فَحَصَلَ فِيهِ الْعِلْمُ، فَهَذَا لَا يُرْفَعُ مِنْ صَدْرِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

---

(٥٣) قال النووي في شرحه (١٦٩/٢): "الْمَجْلُ" فَبِفَتْحِ الْمِيمِ وَإِسْكَانِ الْجِيمِ وَفَتْحِهَا؛ لُغَتَانِ حَكَاهُمَا صَاحِبُ التَّحْرِيرِ. وَالْمَشْهُورُ الْإِسْكَانُ، يُقَالُ: مِنْهُ مَجِلَتْ يَدُهُ، بِكَسْرِ الْجِيمِ. تَمْجَلُ بِفَتْحِهَا، مَجَلًا بِفَتْحِهَا أَيْضًا. وَمَجَلَتْ بِفَتْحِ الْجِيمِ. تَمْجُلُ بِضَمِّهَا. مَجْلًا بِإِسْكَانِهَا؛ لُغَتَانِ مَشْهُورَتَانِ. وَأَمْجَلَهَا غَيْرُهَا، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ وَالْغَرِيبِ: الْمَجْلُ هُوَ التَّنَفُّطُ الَّذِي يَصِيرُ فِي الْيَدِ مِنَ الْعَمَلِ بِفَأْسٍ أَوْ نَحْوِهَا. وَيَصِيرُ كَالْقُبَّةِ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ.

(٥٤) قال النووي في شرحه (١٦٩/٢): "مُنْتَبِرًا" مُرْتَفِعًا. وَأَصْلُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ الِارْتِفَاعُ، وَمِنْهُ الْمِنْبَرُ لِارْتِفَاعِهِ، وَارْتِفَاعُ الْخَطِيبِ عَلَيْهِ.

(٥٥) رواه البخاري (٦٤٩٧) ومسلم (٢٣٠-١٤٣).